

سلسلة أعمال غسان كنفاني  
٣

غسان كنفاني

## رجال في الشمس



## غسان كنفاني

١٩٣٦م

\* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

\* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلماً للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

\* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محرراً ادبياً لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيساً لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

\* يمثل كنفاني نموذجاً خاصاً للكاتب السياسي والروائي والناقد، فكان مبدعاً في كتاباته كما كان مبدعاً في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة «اصدقاء الكتاب في لبنان» لافضل رواية عن روايته «ما تبقى لكم»، كما نال جائزة منظمة

\* رجال في الشمس، رواية لغسان كنفاني.

\* الطبعة الثانية، ١٩٨٠ (الطبعة الاولى ١٩٦٣)

\* جميع الحقوق محفوظة.

\* تصميم واخراج وتنفيذ «دار المثلث، ش.م.م»، بيروت.

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «اللوتس» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

\* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، \* ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، \* رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، \* الباب (مسرحية) ١٩٦٤، \* عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، \* ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، \* ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦، \* القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، \* في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، \* عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، \* الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، \* ام سعد (رواية) ١٩٦٩، \* عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، \* العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، \* الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، \* برفوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ - ٧٢، \* جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ \* المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ \* ثورة ٣٦ - ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: \* الشيء الآخر، او «من قتل ليل الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ \* اللوتس الاحمر الميت (رواية)، ١٩٦١ \* ثم اشرفت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ \* ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

## تمهيد

عندما صدرت رواية «رجال في الشمس» في بيروت عام ١٩٦٣، كانت العمل الروائي الفلسطيني الاول الذي يكتب التشرد والموت والحيرة وي طرحها كسؤال تاريخي. «رجال في الشمس» هي رواية قصيرة تستلهم تجربة الموت الفلسطيني وتحيله الى سؤال يتردد صدها في الصحراء العربية.

تروي «رجال في الشمس» حكاية ثلاثة فلسطينيين من اجيال مختلفة، يلتقون حول ضرورة ايجاد حل فردي لمشكلة الانسان الفلسطيني المعيشية عبر الهرب الى الكويت، حيث النفط والثروة. ابو قيس: الرجل العجوز الذي يحلم ببناء غرفة في مكان ما خارج المخيم، اسعد: الشاب الذي يحلم بدنانير الكويت وب حياة جديدة، ومروان: الصغير الذي يحاول ان يتغلب على مأساته المعيشية، فشقيقه في الكويت تركهم دون معيل لانه تزوج، ووالده ترك امه ليتزوج بامرأة تملك بيتا، عليه اذن ان يعيل العائلة فيقرر الوصول الى الكويت.

تتمحور الرواية حول هدف الوصول هذا، يقرر الثلاثة الهرب في خزان شاحنة يقودها ابو الخيزران، وابو الخيزران فقد رجولته في حرب ١٩٤٨، وهو يعمل سائقا على طريق الكويت، وفي نقطة الحدود يموت الفلسطينيون الثلاثة لان السائق يتأخر، يموتون دون ان يقرعوا جدار الخزان او يرفعوا صوتهم بالصراخ.

«رجال في الشمس»، هي الصراخ الشرعي المفقود، انها الصوت الفلسطيني الذي ضاع طويلا في خيام التشرد، والذي يحتنق داخل عربة يقودها خصي هزم مرة اولى وسيقود الجميع الى الموت. وهي كرواية لا

تدعي التعبير عن الواقع الفلسطيني المعاش في علاقاته المتشابكة، انها اطار رمزي لعلاقات متعددة تتمحور حول الموت الفلسطيني، وحول ضرورة الخرج منه باتجاه اكتشاف الفعل التاريخي او البحث عن هذا الفعل انطلاقا من طرح السؤال البديهي: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان».

ربما كانت هذه الرواية القصيرة، هي احد اكثر الاعمال الادبية العربية تعبيرا عن ارادة الفعل الفلسطيني قبل ان يتكامل هذا الفعل في اطار سياسي، وهي بهذا المعنى، احد المعالم الادبية البارزة التي قدمت صورة عن التحول الفلسطيني والعربي في مرحلة ما قبل حزيران ١٩٦٧.

كتب كنفاني هذه الرواية في اوائل عام ١٩٦٢، حين اضطر للاختباء في بيروت، لانه لم يكن يملك اوراقا رسمية، في فترة اشتد فيها القمع والملاحقة على اثر محاولة انقلابية فاشلة جرت في لبنان في حينه. وقد ترجمت هذه الرواية الى الانكليزية والفرنسية والهولندية والالمانية والهنگارية والنرويجية والسويدية والتشيكية. كما حولت الى فيلم سينمائي اخرجه توفيق صالح بعنوان «المخدوعون»، وقد فاز هذا الفيلم بعدد من الجوائز: جائزة مهرجان قرطاج في تونس، جائزة مهرجان الافلام الكاثوليكية في باريس وجائزة افلام حقوق الانسان في ستراسبورغ. كما قام فريق مسرحي فلسطيني بتحويل الرواية الى نص مسرحي عرض في مدينة الناصرة، غير ان سلطات الاحتلال الاسرائيلية اوقفت العرض. كما قام الفريق المسرحي التابع لاذاعة كل من السويد والدانمارك بمسرحة الرواية.

الناشر

To Anni H. Kanafani

G.

Boet 182

عبد السلام

2 182

روايات المساء  
سوريين

## أَبُو قَيْسٍ

مختار من  
أشعاره

أراح أبو قيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الأرض تحفق من  
نحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر إلى  
خلياه... في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب  
كأنما قلب الأرض ما زال، منذ أن استلقى هناك أول مرة، يشق طريقاً  
قاسياً إلى النور قادماً من أعماق اعماق الجحيم، حين قال ذلك مرة لجاره  
الذي كان يشاطره الحقل، هناك، في الأرض التي تركها منذ عشر  
سنوات، اجابه ساخراً:

«هذا صوت قلبك انت تسمعه حين تلتصق صدرك بالأرض»، أي  
هراء خبيث. ! والرائحة إذن؟ تلك التي إذا تشققها ماجت في جبينه ثم  
انهالت مهيومة في عروقه؟. كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها  
خيّل إليه أنه يتنسم شعر زوجه حين تخرج من الحمام وقد إغتسلت بالماء  
البارد.. الرائحة إياها، رائحة امرأة إغتسلت بالماء البارد وفرشت  
شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيباً.. الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين  
كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً..

الأرض الندية - فكر - هي لا شك بقايا من مطر أمس.. كلا،  
أمس لم تمطر! لا يمكن أن تمطر السماء الآن إلا فيظاً وغباراً! أنسيت  
أين أنت؟ أنسيت؟

دور جسده واستلقى على ظهره حاضناً رأسه بكفيه وأخذ ينطلع إلى

السماء: كانت بيضاء متوهجة، وكان ثمة طائر أسود يحلق عالياً وحيداً على غير هدى، ليس يدري لماذا امتلاً، فجأة، بشعور أسن من الغربية، وحسب لوهلة أنه على وشك أن يبيكي... كلا، لم تمطر أمس، نحن في آب الآن... أنسيت؟ كل تلك الطريق المناسبة في الخلاء كأنها الأبد الأسود... أنسيتها؟ ما زال الطائر يحوم وحيداً مثل نقطة سوداء في ذلك الوهج المترامي فوقه... نحن في آب! إذن لماذا هذه الرطوبة في الأرض؟ إنه الشط! ألسنت تراه يتراعى على مذ البصر إلى جانبك؟

- «وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات، يشكلان نهراً واحداً إسمه شط العرب يمتد من قبل البصرة بقليل إلى...»

الأستاذ سليم، العجوز النحيل الأشيب، قال ذلك عشر مرات بصوته الرفيع لطفل صغير كان يقف إلى جانب اللوح الأسود، وكان هو ماراً حينذاك حذاء المدرسة في قريته... فارتقى حجراً وأخذ ينلصص من الشباك: كان الأستاذ سليم واقفاً أمام التلميذ الصغير وكان يصبح بأعلى صوته وهو يهز عصاه الرفيعة:

- «... وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات...»

وكان الصغير يرتجف هلعاً فيها سرت ضحكات بقية الأطفال في الصف... مذ يده ونقر طفلاً على رأسه فرفع الطفل نظره إليه وهو ينلصص من الشباك:

- «... ماذا حدث؟»

ضحك الطفل وأجاب هامساً:

- «تيس!»

عاد، فنزل عن الحجر وأكمل طريقه وصوت الأستاذ سليم ما زال يلاحقه وهو يكرر:

- «وحين يلتقي النهران الكبيران...»

في تلك الليلة شاهد الأستاذ سليم جالساً في ديوانية المختار يقرر بنرجيلته: كان قد أرسل لقرينتهم في يافا كي يعلم الصبية، وكان قد أمضى شطراً طويلاً من حياته في التعليم حتى صارت كلمة أستاذ جزءاً لا يتجزأ من إسمه، وفي الديوانية سأل أحدهم، تلك الليلة:

- «... وسوف تؤم الناس يوم الجمعة... أليس كذلك؟»

وأجاب الأستاذ سليم ببساطة:

- «كلا، إنني أستاذ ولست إماماً...»

قال له المختار:

- «وما الفرق؟ لقد كان أستاذنا إماماً...»

- «كان أستاذ كتاب، أنا أستاذ مدرسة...»

وعاد المختار يلح:

- «وما الفرق؟»

لم يجب الأستاذ سليم بل دَوَّرَ بصره من وراء نظارتيه فوق الوجوه كأنه يستغيث بواحد من الجالسين، إلا أن الجميع كانوا مشوشين حول هذا الموضوع مثل المختار...

بعد فترة صمت طويلة تنحنح الأستاذ سليم وقال بصوت هادئ:

- «طيب، أنا لا أعرف كيف أصلي...»

- «لا تعرف؟»

زأر الجميع، فأكد الأستاذ سليم مجدداً:

- «لا أعرف!»

تبادل الجلوس نظرات الإستغراب ثم ثبتوا أبصارهم في وجه المختار الذي شعر بأن عليه أن يقول شيئاً، فاندفع دون أن يفكر:

- «... وماذا تعرف إذن؟»

وكان الأستاذ سليم كان يتوقع مثل هذا الدُّّال، إذ أنه أجاب بسرعة وهو ينهض:

- «أشياء كثيرة... إنني أجيد ~~الطلاق~~ الرصاص مثلاً...»

وصل إلى الباب فالتفت، كان وجهه النحيل يرتجف:

- «إذا هاجوكم أيقظوني، قد أكون ذا نفع...»

\*\*\*

ها هو إذن الشط الذي تحدث عنه الأستاذ سليم قبل عشر سنوات! ها هو ذا يرتقي على بعد آلاف من الأميال والأيام عن قريته وعن مدرسة الأستاذ سليم... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم! يا رحمة الله عليك! لا شك أنك ذا **حظوة** عند الله حين جعلك تموت قبل ليلة واحدة من سقوط القرية المسيكية في أيدي اليهود... ليلة واحدة فقط... يا الله! أتوجد ثمة نعمة إلهية أكبر من هذه؟... صحيح أن الرجال كانوا في

شغل عن دفنك وعن إكرام موتك... ولكنك على أي حال بقيت هناك... بقيت هناك! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وأنقذت شيخوختك من العار... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم... ترى لو عشت، لو أغرقك الفقر كما أغرقني... أكنت تفعل ما أفعل الآن؟ أكنت تقبل أن تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء إلى الكويت كي تحمد لقمة خبز؟

نهض، واستند إلى الأرض بكوعيه وعاد ينظر إلى النهر الكبير كأنه لم يره قبل ذلك. إذن هذا هو شط العرب: «نهر كبير تسير فيه البواخر محملة بالتمر والقش كأنه شارع في وسط البلد تسير فيه السيارات...» هكذا صاح ابنه، قيس، بسرعة حين سأله تلك الليلة:

- «ما هو شط العرب؟»

كان يقصد أن يمتحنه، إلا أن قيس صاح الجواب بسرعة، وأردف قائلاً:

- «... لقد رأيتك تطل من شباك الصف اليوم...»

إلقت إلى زوجه فضحكت، أحس بشيء من الخجل، وقال بيطة:

- «انني أعرف ذلك من قبل...»

- «كلا، لم تكن تعرفه... عرفته اليوم وأنت تطل من الشباك...»

- «طيب! وماذا يعني أن أعرف ذلك أو أن لا أعرفه، هل ستقوم القيامة؟»

رمقته زوجته من طرف عينيها ثم قالت:

- «إذهب والعب يا قيس في الغرفة الأخرى...»

وحين صفق الباب خلفه قالت لزوجها:

- «لا تحكي أمامه بهذا الشكل، الولد مبسوط لأنه يعرف ذلك، لماذا

تخيب <sup>أبوي</sup> الولد؟»

قام واقترب منها ثم وضع كفه على بطنها وهمس:

- «متى؟»

- «بعد سبعة أشهر»

- «أوف!»

- «نريد بنتاً هذه المرة...»

- «كلا ! نريد صبياً ! صبياً!»

\*\*\*

ولكنها أنجبت بنتاً سماها «حسنا»، مانت بعد شهرين من ولادتها  
وقال الطبيب مشمئزاً: «لقد كانت نحيلة للغاية!»

كان ذلك بعد شهر من تركه قريته، في بيت عتيق يقع في قرية أخرى  
بعيدة عن خط القتال:

- «يا أبا قيس، أحس بأنني سألد!»

- «طيب، طيب، إهدائي»

وقال في ذات نفسه:

«يودي لو تلد المرأة بعد مئة شهر من الحمل! أهذا وقت ولادة؟»

- «يا إلهي!»

- «ماذا؟»

- «سألد»

- «أناذي شخصاً؟»

- «أم عمر»

- «أين أجدها الآن؟»

- «ناولني هذه الوسادة...»

- «أين أجد أم عمر؟»

- «يا إلهي... إرفعني قليلاً، دعني أتكئ على الحائط...»

- «لا تتحركي كثيراً، دعيني أناذي أم عمر...»

- «أسرع... أسرع... يا رب الكون!»

هرول إلى الخارج، وحين صفق وراءه الباب سمع صوت الوليد  
معاد وألصق أذنه فوق خشب الباب...

صوت الشط يهدير، والبحارة يتصايحون، والسماء تنوهج والطنائر  
الأسود ما زال يحوم على غير هدى.

قام ونفض التراب عن ملابسه ووقف يحدق إلى النهر...



أحسن، أكثر من أي وقت مضى، بأنه غريب وصغير، مرر كفه فوق ذقنه الخشنة ونفض عن رأسه كل الأفكار التي تجمعت كجوش زاحمة من النمل.

وراء هذا الشط، وراءه فقط، توجد كل الأشياء التي حرمها.

هناك توجد الكويت... الشيء الذي لم يعيش في ذهنه إلا مثل الحلم والتصور يوجد هناك... لا بد أنها شيء موجود، من حجر وتراب وماء وسماء، وليست مثلها تهوم في رأسه المكدود... لا بد أن ثمة أزقة وشوارع ورجالاً ونساء وصغاراً يركضون بين الأشجار... لا... لا... لا توجد أشجار هناك... سعد، صديقه الذي هاجر إلى هناك واشتغل سواقاً وعاد بأكياس من النقود قال إنه لا توجد هناك أية شجرة... الأشجار موجودة في رأسك يا أبا قيس... في رأسك العجوز التعب يا أبا قيس... عشر أشجار ذات جذوع معقدة كانت تساقط زيتوناً وخيراً كل ربيع... ليس ثمة أشجار في الكويت، هكذا قال سعد... ويجب أن تصدق سعداً لأنه يعرف أكثر منك رغم أنه أصغر منك... كلهم يعرفون أكثر منك... كلهم.

في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر... لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبينك وشبابك وقريتك كلها... في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقتهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير... ماذا تراك كنت تنتظر؟ أن تنقب الثروة سقف بيتك... بيتك؟ إنه ليس بيتك... رجل كريم قال لك: «سكن هنا! هذا كل شيء، وبعد عام قال لك أعطني نصف للفرقة، فرفعت أكياساً مرقعة من الخيش بينك وبين الخير إن الجدد...

وبقيت مفعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلما يهز الحليب ليصير زبدًا...  
- وإذا وصلت إلى الشط بوسعك أن تصل إلى الكويت بسهولة، البصرة مليئة بالأدلاء الذين يتولون تهريبك إلى هناك عبر الصحراء... لماذا لا تذهب؟

سمعت زوجته كلام سعد فنقلت بصرها بين وجهيهما وأخذت تهدد طفلها من جديد.

- «انها مغامرة غير مأمونة العواقب؟»

- «غير مأمونة العواقب؟ ها! ها! أبو قيس يقول، غير مأمونة العواقب... ها ها!»

ثم نظر إليها وقال:

- «أسمعت ما يقول زوجك؟ غير مأمونة العواقب! كأن الحياة شريرة لبن! لماذا لا يفعل مثلنا؟ هل هو أحسن؟...  
لم ترفع بصرها إليه، وكان هو يرجو أن لا تفعل...

- «أتعجبك هذه الحياة هنا؟ لقد مرت عشر سنوات وأنت تعيش كالشحاذ... حرام! إنك قيس، متى سيعود للمدرسة؟ وغداً سوف يكبر الآخر... كيف ستنظر إليه وأنت لم...»  
- «طيب! كفى!»

- «لا! لم يكف! حرام! أنت مسؤول الآن عن عائلة كبيرة، لماذا لا تذهب إلى هناك؟ ما رأيك أنت؟»

زوجته ما زالت صامته وفكر هو: «غداً سيكبر هو الآخر...»  
ولكنه قال:

- «الطريق طويلة، وأنا رجل عجوز ليس بوسعي أن أسير كما سرتم  
أنتم... قد أموت...»

لم يتكلم أحد في الغرفة، زوجته ما زالت تهدد طفلها. وكف سعد  
عن الإخاج ولكن الصوت الغليظ انفجر في رأسه هو:

- «تموت؟ هيه! من قال أن ذلك ليس أفضل من حياتك الآن؟ منذ  
عشر سنوات وأنت تأمل أن تعود إلى شجرات الزيتون العشر التي  
امتلكتها مرة في قرينك... قرينك! هيه!»

عاد فنظر إلى زوجته:  
- «ماذا تريين يا أم قيس؟»

حدقت، إليه وهمت:

«كما ترى أنت...»  
«سيكون بوسعنا أن نعلم قيس...»

- «نعم».

- «وقد نشترى عرق زيتون أو إثنين...»

- «طبعاً!»

- «وربما نبني غرفة في مكان ما...»

- «أجل».

- «إذا وصلت... إذا وصلت...»

كف، ونظر إليها. لقد عرف أنها سوف تبكي: سترنجف شفرتها  
السفلى قليلاً ثم ستساب دمة واحدة تكبر رويداً رويداً ثم تنزل فوق  
خدها المغضن الأسمر... حاول أن يقول شيئاً، ولكنه لم يستطع، كانت  
غصة دامعة تمزق حلقه... غصة ذاق مثلها تماماً حين وصل إلى البصرة  
وذهب إلى دكان الرجل السمين الذي يعمل في تهريب الناس من  
البصرة إلى الكويت، وقف أمامه حاملاً على كتفيه كل الذل وكل الرجاء  
الذين يستطيع رجل عجوز أن يحملها... وكان الصمت مطبقاً مطناً  
حين كرر الرجل السمين صاحب المكتب:

- «إنها رحلة صعبة، أقول لك، ستكلفك خمسة عشر ديناراً».

- «وهل تضمن أننا سنصل سالمين؟»

- «طبعاً سنصل سالمين، ولكن ستعذب قليلاً، أنت تعرف، بحر في  
آب الآن، الحر شديد والصحراء مكان بلا ظل... ولكنك ستصل...»  
كانت الغصة ما تزال في حلقه، ولكنه أحس أنه إذا ما أجل ذلك  
الذي سيقوله فلن يكون بوسعه أن يلفظه مرة أخرى:

- «لقد سافرت آلافاً من الأميال كي أصل إليك، لقد أرسلني سعد،  
أتذكره؟ ولكنني لا أملك إلا خمسة عشر ديناراً، ما رأيك أن تأخذ منها  
عشرة وتترك الباقي لي؟»

قاطعه الرجل:

- «إننا لا نلعب... ألم يقل لك صديقك أن السعر محدود هنا؟ إننا